الحب عند المتنبي (*)

للأستاذ حسن الأمين

هل أحب المتنبي وهل أحس بلواعج الوجد وتباريح الغرام؟ هل استطاعت امرأة أن تخلب لبه وتفتن قلبه، فيشيد بها ويتغنى بجمالها ومحاسنها؟

إذا أردنا أن نتخذ شعر المتنبي دليلاً على ترجيح السلب أو الإيجاب، وإذا أردنا أن نرجع إلى ديوانه لنستدل بالجواب؛ فإننا نستطيع أن نقول بدون تردد إن المتنبي لم يعرف الحب ولم يعانه، فالذي يقول:

وما العشق إلا غرة وطاعة يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادي للغواني رميـة وغير بنـاني للزجاج ركاب

إن الذي يقول هذا القول لا يمكن أن يكون من أهل الحب بل هو من الهازئين بالحب وأهله الشنعين عليهم الرامين لهم بالضعف، فالحب عنده غرة وطاعة، وليس من رأيه أن القلب يرمى من حيث لا يحتسب، بل من رأيه أن القلب هو الذي يعرض نفسه لهـذه الغرة والطاعة فيصاب، ولو شاء هـذا القلب ألا يصاب لما أصيب وهذا قلبه فإنه لم يشأ أن يصاب فلم يصب.

ولم يسكت المتنبي عند هذا القول، بل ردده في مواضع شتى فقال:

ممـا أضر بأهل العشق أنهم هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
تفنى عيونهم دمعاً وأنفسهم في إثر كل قبيح وجهه حسن

فالذي يراه المحبون حسناً فتفنى عيونهم به وتذوب نفوسهم ليس إلا الوجوه فقط، وأما النفوس فإنها قبيحة لا خير فيها، ولو أنهم اطلعوا على ما وراء هذا الحسن الخادع لما أضر بهم عشقهم، ولكنهم أحبوا وعشقوا، دون أن يمعنوا في التأمل بحقائق الدنيا، فلم يعرفوا دخائل من أحبوا، ولم يفطنوا إلى ما ينطوي عليه من غدر وخاتلة وخداع. وهذا الرأي القاتم متأت ولا شك عن نظرة المتنبي للناس عامة ذكوراً وإناثاً، فلا تحسب المرأة أن المتنبي من أعدائها وحدها، فهو ثائر على الكون ناقم على البشر جميعاً، لأنه يرى نفسه مهتضماً مغيظاً لا يبل له أوام ولا يجاب نداء، وهذا الرأي هو صدى لرأيه القائل:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى رمحه غير راحم

وبعد أن يعلن المتنبي رأيه بالعشق وأهل العشق يلتفت إلى الغانيات المغريات، فيجبههن بأعنف القول وأمر الكلام ويخاطبهن بقسوة وتهكم صارخاً بهن:

تحملوا حملتكم كل ناجية فكل بين على اليوم مؤتمن

فلا التهديد بالرحيل ولا الوعيد بالهجر، استطاع أن يلين قلبه ويميل به إلى الهوى، بل أعلن بأن البين لن يضيره، وأن النأي لن يزعجه. ولماذا يهتم ببعدهن ويشغل نفسه بهن، ولماذا يحزن لفراقهن ويأسى على رحيلهن ما دامت مهجته وحدها هي التي ستتحمل عبء ذلك كله، وما دام لن يجد لهذه المهجة إذا ذابت شوقاً وتلاشت حنيناً — لن يجد عوضاً عنها في الظعائن وثمناً لها في الهوادج!

ما في هوادجكم عن مهجتي عوض
إن مت شوقاً ولا فيها لهـا ثمن

وإن الذي يقول:

وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقـر في همتي كشعرة في مفرق

والذي يقول عن نفسه وعن الناس:

ودهر ناسه ناس صغـار وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

إن الذي يقول هذا القول لا يكون غريباً عليه أن يرى مهجته أسمى من أن يذيبها شوق لمخلوق، ونفسه أعظم من أن يقتلها حب لإنسان

وإذا كنا قلنا آنفاً إن المتنبي ناقم على الناس جميعاً وإن ثورته

(*) عطفاً على المقال المنشور في العدد ٥٦٩ من هذه المجلة

ليست على المرأة وحدها ، فهذا لا يعنى أن ليس له فيها نظرة خاصة . فقوله :

إذا عذرت حسناء وفت بعدها فمن عهدها أن لا يدوم لها عهد

وقوله :

ومن خبر الغـوانى فالغوانى ضياء فى مواطنه ظلام

إن هذا القول صراحة فى تخصيصه إياها بالشطر الوافى من حملاته على بنى الإنسان وصراحة برأيه السيىء بها ، بل إن هذا القول يضعه فى صف خصومها الألداء وأعدائها الأشداء . على أنه ربما كان أحسن وصفها كل الإحسان وأنصفها كل الإنصاف حين قال :

وإن عشقت كانت أشـد صبابة
وإن فركت فاذهب فما فى فركها قصد
وإن حقدت لم يبق فى قلبها رضاً
وإن رضيت لم يبق فى قلبها حقد

* * *

ولكن المتنبى صاحب هذه الآراء القاسية فى المرأة والغرام لم يستطع أن يجرد شعره من الغزل فقد افتتح كثيراً من قصائده بالغزل وتحدث عن الحب والنساء ، وتظاهر بالهوى وشكوى النوى ، وشارك العاشقين فى بث الوجد وذكر الوصل والصد ، حتى أنه أغرق فى ذلك أحياناً إغراقاً حاول فيه أن يتسمى بالعاشق كل العاشق :

وما أنا إلا عاشق كل عاشق أعق خليليه الصفيين لائمه

وأن يجعل عشقه فوق كل عشق :

وطرف إن سقى العشاق كأساً بها نقص سقانيها دهاقا

وأن يكون شاعراً غزلاً :

أحيا وأيسر ما عانيت ما قتلا والبين جار على ضعفى وما عدلا

فهو يتحدث عن حب قاتل يعجب معه كيف يبقى حياً ، ويتحدث عن بين جار عليه فلم ينصف ضعفه . ولا يقتصر على هذا الحديث الإجمالى عن الحب بل يعود فيخاطب حبيبة بعينها فيتضرع لها تضرع الولهان :

بما بجفنيك من سحر صلى دنفاً يهوى الحياة وأما إن صددت فلا

ثم يسهب بوصف عواطفه الناضجة فى عدة أبيات يصل بعدها إلى ما أراده من مدح أحد الناس وينتهى الأمر . وهكذا يبدو غزله بوجه عام ، فهو إما أن يرتفع قليلاً عن هذا المستوى أو ينحط عنه قليلاً أو كثيراً ، ومهما ارتفع أو انحط فهو غزل لا طائل تحته ، ولا عاطفة تذكيه ولا شعور يوريه ويسف أحياناً كل الإسفاف فيقول :

أوه بديل من قولتى واها لمن تأت والبديل ذكراها
أوه لمن لا أرى محاسنها واصـــل واهاً وأوه مرآها

والمتنبى نفسه يعلن رأيه فى هذا الغزل الفاشى فى بعض قصائده ولا يحجم عن أن يقول إنه سير على سنن غيره من الشعراء ، وأن طريقة الشعر قد اقتضت هذا ، وأن افتتاح القصائد بالغزل ليس دليلاً على الحب والغرام :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيم

وكأن المتنبى صاحب الدعوة ضد الحب والمرأة قد خشى أن يؤخذ عليه غزله وأن يعتبر تناقضاً مع آرائه الصريحة فاعتذر عن هذا الغزل وأعلن حقيقته ، وأنه ليس فى الواقع الغزل الذى عرفه الناس ونظمه الشعراء ، بل هو غزل رمزى يخفى تحته شعوراً غير شعور الغرام ، وحباً لغير المرأة ، وشغفاً بغير ثناياها الغر وأحداقها النجل ، فبعد أن افتتح قصيدة بالغزل المألوف عاد يقول :

محب كنى بالبيض عن مرهفاته
وبالحسن فى أجسامهن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا غير أننى خباها أحبائى وأطرافها أسلى
عدمت فؤاداً لم تبت فيه فضلة لغير الثنايا الغر والحدق النجل
فما حرمت حسناء بالهجر غبطة ولا بلغتها من شكى الهجر بالوصل

وهو فى بيته الثالث عنيف متشدد وفى بيته الأخير مستهزئ بلذائذ الوصال مستهتر بالهجر لا يرى أن غضب الحسناء وهجرها يمكن أن يحرم المرء أية غبطة ولا أن وصلها يمكن أن يجلب

أية سعادة وهذا أقسى مظهر من مظاهر آرائه الصلبة . على أننا لا نستطيع أن نجرد جميع غزله من العاطفة والشعور فلا شك أن فى القليل من بعضه عاطفة جياشة وحساً نابضاً ولكن ليس الحب وليست المرأة هى مصدر ذلك ، بل هى ذكريات أيام سوالف وأشواق إلى منازل نائية وأهل بعيدين كأن يقول :

ما لاح برق أو ترنم طائر إلا انثنيت ولى فؤاد شيق

أو يقول :

وكيف التذاذى بالأصائل والضحى
إذا لم يعد ذاك النسيم الذى هبا
فيا شوق ما أبقى ويالى من النوى
ويا دمع ما أجرى ويا قلب ما أصبى

أو يقول :

ليالىّ بعد الظاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويل
يبين لى البدر الذى لا أريده ويخفين بدراً ما إليه سبيل
وما عشت من بعد الأحبة سلوة ولكننى للنائبات حمول
إذا كان شم الروح أدنى إليكم فلا برحتنى روضة وقبول
وما شرق بالماء إلا تذكراً لماء به أهل الحبيب نزول

وما أدرانا أن لا يكون وهو يرسل هذا الشعر وأمثاله إنما يذكر تلك العجوز الذى رأينا إشفاقه عليها وشغفه بها فى رثائه لها ، وأنه يذكر أيام صباه الماضية فى بلده بين أهله وقومه :

أما الأحبة فالبيداء دونهم قليت دونك بيد دونها بيد

ولا بد لنا ونحن فى الحديث عن غزله من أن نلم بالأبيات الجميلة التى تغزل فيها بالأعرابيات وعرض بالحضريات :

ما أوجه الحضر المستحسنات بها كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب
أين المها من الآرام ناظرة وغير ناظرة فى الحسن والطيب
أفدى ظباء فلان ما عرفن بها
مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ومن هوى كل من ليست مموهة تركت لون مشيبى غير مخضوب

ولا شك أن هذا الغزل البدوى ، والتظاهر بالشغف بالأعرابيات إنما هو أثر من آثار النقمة على المرأة فقد اتخذ من بساطة البدويات وسيلة للحملة على عادات المدن وانشغالهن بالزينة والتطرية والتجمل فتهكم على أصباغهن ومساحيقهن ، وهزأ بمضغهن الكلام وشبههن بالمعزى ، وعاب عليهن تمويه الحقائق وتجردهن من كل محمدة وحسن ، ومع ذلك ومع أنه اتخذ الأعرابيات ترساً يتوارى وراءه فى الهجوم على الحضريات فإن سجيته أبت إلا أن تتغلب عليه فلم يستطع أن يترك ثناءه على نساء البدو خالصاً لا شائبة فيه ، بل عاوده داؤه المزمن فى الغضب على الجنس البشرى والنقمة على بنى الإنسان فغمز من البادية وأهل البادية غمزة قاسية :

فؤاد كل محب فى بيوتهم ومال كل أخيذ المال محروب

ظهرت لأول مرة بمناسبة العيد الألفى للفيلسوف أبى العلاء المعرى

رسالة الهنـاء

لأبى العلاء المعرى

جزءان فى سفر واحد

شرح وتحقيق الأستاذ الكبير

كامل كيلانى

الذى حبب الأدب العلائى إلى كل قارئ
كما حبب القراءة إلى كل ناشئ

الثمن ٣٥ قرشاً صاغاً ـ وللبريد ٦٣ مليما

يطلب من الناشر

دار الكتب الأهلية

بميدان الأوبرا ـ ت ٤٩٥٦١

وفى السودان من مكتبة
كردفان بالأبيض